قراءة لكلمات سارتر وفلسفته

د. أحمد الأنصاري(*)

يعرض سارتر سيرته الذاتية في «الكلمات»، عرضًا مشوقًا إبداعيًا. يقرأ فيه ذاته ويغوص في أعماقها. يسرد ما بداخلها في صراحة واضحة. لم يتبع النهج التقليدي في كتابة السير، والذي يبدأ بعرض متسلسل للحوادث التي نر بها المرء في طفولته حتى بلغ كهولته أو بعرض المواقف التي أثرت في حياته أو وصف البيئة الاجتماعية المحيطة به في نشأته. نظر لطفولته من منظور طفل في العاشرة من العمر. يعرض من خلاله نظرته لأفراد أسرته، ويعكس تجربته مع القراءة والكتابة. بدأ سارتر وكأنه يعيد بناء مراحل طفولته من جديد، أو أنه الإنسان الذي لم يولد بعد. فلم تكن السيرة الذاتية سجلًا لظروف عصره وأوضاعه الاجتماعية بقدر ما كانت سجلًا لمشاعر إنسان، ووصفًا لوعيه بما حوله، ولما يدور في أعماقه الذاتية، وتوره لما ينبغي أن تكون حياته عليه. يتحدث فيها عن انطباعاته تجاه الأشياء والآخرين. يصف مشاعره المتناقضة تجاههم، وتقلب مشاعره ومزاجه بين اليأس والأمل والمحبة والكراهية، فليس العقل البشري إلا حزمة من المتناقضات.

يتناول سيرته الذاتية في كتاب نشره عام ١٩٥٩ بعنوان «سارتر يتحدث عن نفسه». ثم عرض لها في كتاب «الكلمات» سنة ١٩٤٦. وأكملها في كتابه «بودلير» ١٩٧٧. ثم عاد للحديث عن نفسه مرتين أخرتين في كتاب «شاهد على حياتي» ١٩٨٣، وكتاب «مذكرات حرب» عام ١٩٨٤. يقتصر البحث على تناول كتاب «الكلمات» وقراءته؛ لصلته الواضحة بآرائه الفلسفية وباعتباره المؤلف الذي حظى بشهرة واسعة، ونال عنه جائزة نوبل في الآداب.

ينقسم كتاب «الكلمات» إلى قسمين: الأول «القراءة»، والثاني «الكتابة». وبالرغم من اتساق هذه القسمة مع طبيعة تطوره الفلسفي ومنطق الأشياء، والترتيب المنطقي للأحداث،

(*) دكتوارة الآداب في الفلسفة، جامعة القاهرة.

إلا أنه يمكن قسمته إلى خمس موضوعات رئيسية. يعرض في أولها لحياته الأسرية، وتحليله للعلاقات بين أفرادها ولتاريخ الأسرة الزمني. ويتناول في الثاني دور الخيال الأدبي في حياته وصلته بعالم التخيل. ويوضح في الثالث عملية انتحاله شخصية الغير ولإدراكه الواعي للغش والخداع لهذه العملية. ويناقش في الرابع ظاهرة الوجود الممكن أو المحتمل الوقوع. ويتناول في الخامس مسألة الخوف من الموت وكيفية القضاء عليها وتعريف نظريته في الخلود ومعناه، وتطور علاقته بالروح القدس حتى مرحلة الرفض الكامل لوجود الإله. تُعد الكلمات عبارة عن مذكرات يكتبها كاتب يتأمل أفكاره وأوهامه ويبحث عن سبب نشأتها، وعن الأحداث التي كانت سببًا في إتخاذه لمواقف فكرية معينة في نضجه، أو اتجاهه إلى فلسفات معينة بذاتها في مراحل عمره المتأخرة ويمارس فيها نوعًا من التحليل النفسي، ويبحث عن أصل الظواهر في الشعور. ويخلط فيها بين الخيال والواقع. يربط نشأة إدراكه للطبيعة بالسينما الصامته، يتخيل ما يجري بين الأشياء من حوار. وبذلك جاءت الكلمات نوعًا من الاعتراف بأن خطأ ما قد حدث بالفعل، وظاهرة ما قد خرجت عن مسارها الطبيعي وخضعت للإحتمال والصدفة.

يبدأ مسألة التأريخ لحياته منذ عام ١٩٥٣ لحظة تخلصه من المثالية ووقف إرتباطه بالحزب الشيوعي. ولم تكتمل مسألة التأريخ هذه إلا في عام ١٩٦٣. ويلاحظ صعوبة فصل سيرته الذاتية كما عرضها في الكلمات عن مذهبه الفلسفي في الظاهريات ودراسته للشعور باعتباره تلميذًا لهوسرل، وإدراكه للظاهرة مباشرة في الشعور أو التحليل الذاتي[١]. أو عن مذهبه الوجودي عامة ومباديء الوجودية المعروفة أو عن آرائه الفلسفية خاصة تلك التي تناولها في كتابيه: الوجود والعدم ١٩٤٣، ونقد العقل الجدلي١٩٦٠.

عاش حياته مع امرأتين إحداهما والدته، شابه يافعة، والأخرى جدته، هرمة عجوز، ومع جده الذي كان له أثر كبير في شخصيته. لم ترتبط حياته بالعالم الحقيقي والأشياء مثل باقي الأطفال، وإنما ارتبط بالصور والكلمات والكتب. عاش مع الشعر والقصص والأفلام الصامته. لم ير والده، وشعر بأنه وجود زائد ولا شيء. ووجد في القراءة ملاذه وفي الكتابة خلاصة، الذي يمكن أن يحقق تغيرًا في وضعه، ويضيف قيمة لحياته، ويعطي لوجوده معنى حتى وإن كانت الكتابة ليست إلا مهربًا، ورفض للحياة. ومحاولة للخلاص فيها[٢] كان طفلاً

(١). حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، ١٩٩١، القاهرة.

(٢) سارتر: الكلمات، ترجمة خليل صابات، صـ٢٠١.

يحيا بمخيلته. ويلعب التخيل دورًا كبيرًا في حياته بسبب طبيعة الحياة التي فرضت عليه والعزلة التي كان يعاني فيها. أدرك ذاته باعتباره مخادعًا. وإتخذ من التحايل وإنتحال الشخصيات وسيلة لممارسة حياته ولاجتذاب إعجاب الآخرين. يتقمص الشخصيات وينتقل من شخصية لأخرى، ويتخذ من الفن طريقًا للخلاص.

أولًا: القراءة

يعبر فصل «القراءة» وموضوعاته عن جانب كبير من فكرة المثالي الذي كان متأثرًا به فترة أعجابه «بباركلي». ويعرض فيه لمرحلة من المراحل طفولته، كان يتصور فيها علاقته بأسرته والأشياء من منطق ما ينبغي أن يكون وما هو محتمل الوقوع. سيطر التخيل على هذه المرحلة وتم الخلط فيها بين الواقع والخيال. وأعتقد أثناءها في وجود الروح القدس الذي يراقب أوصاله. ويُعد فصل «القراءة» نموذجًا لتطبيق المنهج الظاهرياتي، حيث يصف التجربة داخل الوعي، ويعتمد على النظرة الذاتية الخالصة، ويقدم في الوقت نفسه تفسيرًا نفسيًا للعديد من آرائه الفلسفية التي ظهرت فيما بعد. يتناول الفصل الكثير من أفكاره وآرائه التي وردت في كتابه الوجود والعدم (١٩٤٣) وتحليله للموقف الإنساني وربطه بمفاهيم الحرية والعدم والقلق، ومعالجتها ميتافيزيقيًا من وجهة نظر الوعي الفردي. وإن كان في فصل الكتابة ينظر لها. كما نظر لها في كتابه نقد العقل الجدلي ١٩٦٠، أي من منظور اجتماعي ومن وجهة نظر العقل الجمعي. يقسم الوجود إلى وجود في ذاته ووجود لذاته. وبينما يضع أصدقاء الأسرة وناظر المدرسة والمدرسين في طائفة الموجودات في ذاتها، يضع الكتب في طائفة الكائنات لذاتها، فأبطالها كائنات حرة واقعية نحيا معها. ونعيش مع أبطال شكسبير وهوراس في وجداننا. يعقد «الكلمات» كائنات حية تربطنا بالعالم. ويخلق ترتيب العبارات وصياغتها وجودًا آخر لذاته. فليست الكلمة وجودًا في ذاته دائمًا وجود مستقل، وفيها الطيب والقبيح. وبذلك يعود سارتر إلى المانوية من جديد، بعد أن تخلص هيجل منها، وقضى على الثنائية.

ينظر لوالده نظرة مملوءة بالتشاؤم وبالرغبة في الصراع مع الموت باعتباره أكبر تحد للبشرية. يراه رجلًا أحب امرأة وأراد أن يعيش. ووجد نفسه يموت، وهذا يكفي لصنع رجل مكتمل[1]. يجد في والده نموذجًا وملخصًا لموقف الوجود البشري، وللمخاطر المحدقة به، وتقف حجر عثرة

(١) المرجع السابق، صـ٢٠.

أمام إرادته وحريته. لم يتحدث عن والده إلا عن طريق التخيل وتصوره لما قد يفضله الأباء. يراه أحد أبطال الروايات الذي عانى من قسوة الحياة. وربما كان فقدانه للأب سببًا لانشغاله بظاهرة الموت ومحاولة تحليلها. ينظر للأبوة نظرة متشائمة. فلا يوجد أب طيب، تلك هى القاعدة. ولو عاش أبي لرقد فوقي وشخصني[١]. جاءت أوصافه للأب وكأنه يريد معاقبته على تركه وحيدًا في هذه الحياة. وكأن الموت إختيارًا ولا وجود للقدر. ولا يجب أن نلوم الرجال على موقفهم، ورباط الأبوة متضغن والوضع الاجتماعي مسئول عن ذلك فتغلب النظرة الموضوعية على النظرة الذاتية.

نظرت أمه إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاياتها. تطلب أشياءًا منه. يشعر بامتلاكها ولكنه لا يغار عليها. ويصف علاقته بالجد والجدة والأطفال الآخرين بأنها نوع من التمثيل بالرغم من أنها حقيقية. حيث يمثل كل طرف من أطراف العلاقة على الآخر، يحاول خداعه ولا يتصارع معه. يتساءل عن موقف الجد منه قائلًا: لقد كان يعبدني ولكن هل كان يحبني؟ يرى حيث يتحدث عن نفسه أنه كان مؤهلًا للتمثيل. يجب أن يحيا حياة الممثل كي يجتذب الجمهور. يلعب دور الطفل الذي يسعى لتحقيق السعادة للآخرين الذين يشعر أنهم يعبدونه، ويلتقطون الصور معه[٢]. يرى نفسه أنه طفلاً يعرف قدر نفسه وأنه أرض جدباء للشر. حيث تذبل الأفكار السيئة التي تأتي من الخارج ولا تستقر داخله. فالآخرون هم الجحيم. يميل للقيام بالأفعال المتضادة كوضع الملح على المربى مثلًا.

يتحدث عن إحساسه بصعوبة «الكلمة»، ومعاناته فيها وأثرها الشديد عليه، وذلك حين يعرض لعلاقاته بالكلمات، وبالكتب التي شكلت له عالمًا خاصًا به. يرى في الكلمة الصعبة كائنًا يتصارع معه. ويعتبر القصص والمآسي والتراجيديا وردود الفعل صورًا حقيقية لأغوار النفس الإنسانية. وينتهي إلى أن الحقيقة والخرافة شيء واحد. يصادق المؤلفين والكتاب، فقد كان بلا أخ أو أخت أو أصحاب. ويسمعهم يقولون أنه قد يولد بينهم صديقًا جديدًا. لم يمت هؤلاء الأصدقاء وإنما تحولوا إلى كتب لكل كتاب فيها شخصيته ورائحته. كان «كورنيه» ضخمًا، و«فلوبير» صغيرًا مبطنًا بقماش لا رائحة له، وفيكتور هيجو معششًا فوق الأرفف. تتردد روح المؤلفين على المؤلفات وتسكن الكتب وتطل من صفحاتها[٣].

---

(١) الكلمات: صـ١٦.

(٢) المرجع السابق، صـ٢٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، صـ٦٣.

ثانيا: الكتابة

تتبدى مباديء فلسفته بصورة واضحة في فصل «الكتابة». حيث تظهر أفكار الحركة الوجودية كالشعور بالحرية، وتحمل مسئولية الاختيار، والإحساس بالقلق الذي يغدو أمرًا لا مهرب منه، واعتبار المصادفة صفة الوجود الأساسية، ولا معقولية الحياة وعبثيتها، والشعور بالعدم وبالحياة على حافة الشك. رفض المثالية أو الثقة في مسألة التدبر الكوني. لا يسلك الإنسان إلا بدافع التمني. ويتغير الالتزام وفق ضروريات الحياة.وليس الموقف الإنساني شيئًا في نظر الكون، وإنما يكون كل شيء في نظر نفسه. يسير الإنسان حياته وحيدًا. وليس الخير إلا ما يراه خيرًا.

يعتبر «الكتابة» مهنته والرسالة التي ينتظرها الناس. الالتزام مبدأ وجودي. ويولد الإنسان زائدًا عن الحاجة إلا إذا جاء إلى هذا العالم من أجل شيء ينتظره. بل إنتهى به الأمر إلى الشعور بدرجة من الكبرياء تجعله يتمنى الموت أو أن تطلبه الأرض كلها[١]. يشعر أنه يقع فريسة اعتقادين متناقضين دائمًا. فإذا كان الكون هبة السماء، فإنه في الوقت نفسه هبة أعمالي ووليدها. حيث ينبعث كل شيء من داخلي. وينفلت من العدم بقوتي الذاتية كي أقدم للناس المطالعات التي يتمنونها[٢].

يعطى «للكتب» سلطة البطل المقدسة. ويرى أن حالة الاستقرار والسكون تقضي عليه. حيث لا يظهر دوره إلا في عالم متنازع. ليست الكتابة إلا ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة. تدفع الشعب للنضال ضد نفسه وضد أعدائه. وليست إلا طريقًا للخلاص. حيث ينزل الكاتب البركة من السماء على الناس في قداس احتفالي. يعد اختيار الكتابة التزام. ولابد أن يكتب حتى يولد من جديد. ويحتاج لمخ وعينين وذراعين. وإذا ما إنتهى العمل تختفى هذه الأعضاء من تلقاء نفسها. ويرى نفسه كتابًا فوق الرف، فالكتابة وجود. والمجد كفن الموت. وأعتقد أنني خالد وتجنبت الموت المفاجيء. فقد كتب الروح القدس في مؤلفًا ضخمًا. ولابد أن يترك لي الوقت لإكماله. وقد مت بالخلود لأنني قتلت نفسي سلفًا. ولا يتمتع بالخلود إلا الموتى. وإذا كانت الكتابة حياة فالمؤلفات هدف. وإذا أرادت فكرة أن تولد، تذهب إلى رحم امرأة لتستولي على الرجل العظيم الذي يحمل هذه الفكرة[٣].

---

(١) المرجع السابق نفسه: صـ ١٤٦.

(٢) المرجع السابق، صـ١٥١.

(٣) المرجع السابق، من صـ١٧٢: صـ١٧٤.

يقبل النقد الذاتي، ويعتبر ما يكتبه خير كتبه. ويعد نفسه للنفور والاشمئزاز منه فيما بعد. يوافق على أن يقلل النقد من قيمة العمل كله شرط المحافظة على الترتيب الزمني. إذ يحقق مثل هذا الموقف فرصة إجادة العمل فيما بعد. ويرفض الاستعانة بمؤلفات قديمة حتى لا يدفع بخرقة قديمة في ثوب جديد، حيث يفوق الجديد القديم دائمًا. ولا تُنقذ الثقافة أحدًا، ولا تُبرر شيئًا وإنما تعد نتاج إنسان يعكس نفسه عليها. ويعرف نفسه بها؛ لأنها ليست إلا المرآة الناقدة التي تقدم له صورته.

يُعد فصل «الكتابة» عرض غير مباشر للآراء التي وردت في كتابه «نقد العقل الجدلي»، الذي هبط فيه بالحرية إلى عالمها الواقعي. ويصورها على أنه عملية يشارك الإنسان عن طريقها في حركة التاريخ, إتجه إلى تحليل وضع الموجود البشري، وعلاقته بالكون الطبيعي والجماعة والأمة والتاريخ. وما دام العالم في ذاته خال من أي معنى، ويخلع الإنسان عليه معناه، فإن الكتابة الأداة التي يتم بها صنع العالم، وتحديد الذات، والسعى لوضع تنظيم جديد للكون، والتغلب على الصراع بين البشر، وتحقيق التواصل بينهم.

تتغير معاني الكلمات بتغير مراحل نمو الإنسان. وليس العقل مجرد مقولات ثابتة فارغة كما قال كانط في «نقد العقل النظري»، وإنما مقولاته جدلية متغيرة تمثل حركة التاريخ. وإذا كانت ثمة حقيقة في فهم الإنسان لنفسه فإنها حقيقة متغيرة. لا تكف عن الصيرورة وتنبثق عبر التاريخ. حقيقة تاريخية تتألف من المتناقضات. وليست حياته إلا مجموعة من هذه المتناقضات. يشعر أن جذوره القديمة تتساقط على بعضها. وتتلاشى قوانين حياته ماضية بقوانينها. فلا يكون وفيًا لشيء. ويهبط بقيمة الماضي أمام الحاضر وبالحاضر أمام المستقبل. ويمنع الماضي من الاقتراب منه. وتكون السنة التي يولد بها عهدًا قديمًا. يرى الحاضر أفضل من الماضي، والمستقبل أكثر فضلًا. وإن كان الماضي يدفعنا فالمستقبل يشدنا.

تظهر أراؤه في التحرر من القهر الديني والسياسي والاجتماعي في تغير نظرته للإله. يقول: فكرت حين بلغت الثلاثين في القوي العزيز، وحكمت بعدم وجوده إلا أنه ظل اللامرئي والروح القدس الذي يهيمن على حياتي بقوة كبيرة، إستمد منه القدرة على إكمال مهمتي في الحياة. ثم أيقنت بعد ذلك عدم قدرتي على الاستمرار في الإيمان. رفضت أخيرًا الإله بالمعنى المسيحي الكاثوليكي. وبالرغم من سابق اعتقادي بأن الإيمان لا يكتمل أبدًا، ويجب ألا نكف عن دعمه أو على الأقل نمنع أنفسنا من هدمه. إلا أنني لم أستطع التمسك به حتى النهاية. خلصت

نفسي منه بالانفصال. وتخلصت أخيرًا من الاعتقاد في الروح القدس وطردته. وإنتهيت إلى الإلحاد. وبالرغم من إحساسي بأنه مشروع قاس وصلت به إلى النهاية وبلغت أقصى مداه[١]. لقد شفيت أخيرًا من مرصد الإيمان وجنونه، وأنقذت نفسي من الضلال، وأصبحت مسافرًا بلا تذكرة[٢].

ليست الكلمات التي يسرد فيها مراحل طفولته وقصة حياته الخاصة إلا سردًا أو سجلًا أدبيًا لمراحل نمو العقل الإنساني في التاريخ، ووصفًا لمراحل تطور نظرته الإدراكية للأشياء من حوله وللطبيعة والآلهة والتغيرات الكونيةوالآخرين من البشر. يصف هذه المراحل من خلال ذاته وإدراكه الذاتي لها أثناء تعلمه القراءة. لم تكن قرائته مجرد مطالعة للكتب بقدر ما كانت ملاحظة للطبيعة وللأمور الحياتية من حوله وقراءة للأحداث. ينظر للعالم المحيط به نظرة أقرب لنظرة ما يسمى بالوجودية الظاهراتية التي خرجت من «هوسرل» وتسعى لتطبيق المنهج الظاهرياتي للوجود. حيث يضع العالم بين الأقواس ويدرك الواقع مباشرة في وعي طفل في العاشرة من العمر. ويصف تجربته الذاتية المباشرة للشعور بالأشياء وبالأخرين من حوله.. ويُعبر بمنهج ظاهراتي للخيال عن إحساسه الباطني بالأم والجد والجدة والأب الذي ورثه من التاريخ. لم يدرك أباه مباشرة كما فعل بالنسبة لباقي أفراد الأسرة. وإنما إدراكه بصورة غير مباشرة من التراث والتقاليد وملاحظة مسلك أباء الأطفال الأخرين.

تتبدى مسألة سرد تاريخ العقل البشري ومراحل تطوره بصورة أوضح في مرحلة الكتابة. حيث القدرة على الفعل والتغيير بعد مرحلة السلب والرفض، وقيام الإنسان بالسيطرة على الأشياء وتحويلها إلى تجربة بشرية أو وصفها بطابع بشري. يتم خلط الخيال بالواقع وتأليف القصص الأدبية. يصنع شخصيات المسرحيات ويحيا حياة أبطاله. ويحاول التوفيق بين شخصيات باردیان وستروجوف، وسيرفانتيس وزيفاجو، وفاوست، وجان فان. إذ يمثل التخيل بداية خلق العقل وتطور قدراته وامكاناته. كما يعرض في فصل «الكتابة» لمظاهر الصراع التي تبدت في مراحل نمو البشرية والتي اتخذت شكل ظواهر ثابتة تلازم الإنسان خلال مراحل تطوره، كظاهرة الصراع بين القديم والجديد، بين الجد والأم والحفيد، بين إنسان اليوم وإنسان الغد كما نتخيله. بين الواقع والخيال. فلا خيال دون واقع يسبقه ويغلب عليه ويخيل ملاذًا في أو

(١) المرجع السابق نفسه صـ ١٨٣

(٢) المرجع السابق، صـ٢٢١.

دون ذاكرة تحتويه في الوقت نفسه، وتجعله يشكل جزءًا ثابتًا من أجزائها. لا تخلو حياتنا الإنسانية من صراع بين العقل والخرافة، ورغبة في العقلانية والخرافة في آن واحد. بين الإيمان والعلمانية، العبد والسيد، البطل والملك، الأكاذيب والحقائق.

حين يصف تحوله من القراءة إلى الكتابة، ويعبر عن مرحلة تطور البشرية وانتقالها من مرحلة التقليد إلى مرحلة الإبداع والتأليف. ومن الذاتي إلى الموضوعي، ومن إدراكه لمعاني الكلمات إلى اختراعها، ومن مطالعته لسيرة الأبطال إلى محاولة خلق أبطال جدد أو تعديل نهاية الروايات والتحكم في انتصار الأبطال أو في هزيمتهم. يتقمص دور الإله أو مطلق هيجل يعبر عن نفسه من خلال أبطاله. فيأخذ الإنسان بزمام التاريخ. ويسعى لإعادة صياغة الطبيعة وتغيرها، بعد محاكاتها ومسايرة حركاتها. يسطر تاريخ البشرية من جديد؛ فالإنسان مشروع حر وليس ماهية ثابتة.

يُعد اختيار «الكلمات» كعنوان للسيرة الذاتية أمرًا له دلالة دينية. فالكلمة لها قيمة دينية. وتحتل الرابطة بين الله والإنسان والعالم. وجاء الوحي في كلمات وفي البدء كان الكلمة. ولئن أعلن سارتر عن إلحاده في عرض سيرته إلا أن اختيار الكلمات كعنوان لهذه السيرة، يُعبر عن إيمان خفي وإن كان إنسانيًا. يؤمن بأن البشر ليسوا أقل من الألهة ولهم حق الاختيار نمط حياتهم ومسئوليتهم عن وجودهم. لم يسع لصبغ الصفات البشرية على الآلهة أو إلى محاولة تفصيل المسيحية كما فصل الهيجليون. وإنما ارتفع بالإنسان وخلصه من كل التزام ديني وجعله مسئولًا عن قدره. بل تعرض «الكلمات» لنفس المشكلات التي تناولتها الكتب السماوية وناقشتها الأديان، وكأنها كتاب من كتب اللاهوت تناقش الوجود والعدم والموت والخلاص والخلود ومعاملة الآخر، والموقف من التراث القديم. يتحول الكاتب إلى رسول، مهنته الكتابة وخلاصه فيما يقدمه للبشرية من أفكار. يُصبح كتاب «الكلمات» إنجيلًا بشريًا يؤسس لدين إنساني فلسفي، يستبدل كلمات الإنسان بكلمات الإله. ويجعله مسئولًا عن أفعاله ومصيره وقدره. يستبدل الروح الإنساني أو روح البشرية بالروح القدس. فالمشروع إنساني. ويتحول التدبر الكوني إلى عشوائية والضرورة إلى مصادفة والسكون إلى صيرورة.